# تحديات اللغة والثقافة
# في مواجهة العولمة

**د. أحمد بابكر الطاهر المجذوب**
**أستاذ في شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا**
**عضو مراسل في مجمع اللغة العربية بدمشق**

## السباق المحموم

تميز عصرنا هذا بتغيرات غير مسبوقة نظراً لتدفق سيول المعرفة من مراكز البحوث العلمية وبفضل هذه البحوث امتدت اكتشافات العلم والثقافة إلى الكون كله وإلى الكائنات الحية وبذا انقسم عالمنا إلى فئتين:

الأولى تتمتع بالقوة والمنعة بما حققت من تقدم في مختلف المجالات وبخاصة في مناهج التعليم التي ظلت مواكبة لما يسمى "بالموجة الثالثة" كما سماها المفكر الشهير السوسيولجي ألفين توفلر ولقد طبقت هذه الدول راكبة هذه الموجة تربية نابعة من قيمها محققة لأهدافها وبناء مستقبلها وبما أذكت من شعلة البحث العلمي في مراكز البحث والتقانة فيها وبما حققت من التحام وتفاعل بناء بين معاهد العلم ومراكز البحوث من ناحية ومؤسسات الإنتاج والفعاليات من ناحية أخرى، فأصبحت بذلك - ولها الحق كل الحق - من منتجي العلم والتقانة ومن المانحين والمانعين لهما ومن ثم المتحكمين في رقاب من يحتاج من الأمم الأخرى.

أما الفئة الثانية - كان الله في عونها - فتتكون من تلكم الأمم التي رضيت بما أراد لها جلادوها وأصابتها آفات لا تحصى ولا تعد منها تدني التعليم وتخلف البحث العلمي والانفصام بين معاهد التعليم ومراكز البحوث - إن وجدت - وبدأت تهرول إلى نقل الخبرات العلمية والتقانة وأدواتها التربوية من الغير ومن ثم تراجع التجريب العلمي المحلي والإبداع الذاتي فكانت تلك القيم غير القيم النابعة من قيمها، وهكذا كُبحت انطلاقتها وتعمق ترديها وفي الوقت ذاته تنظر إلى ما حققته تلك الأمم بإعجاب شديد وتدرك تماماً أن العالم حولنا انتقل إلى عالم أو مجتمع المعلومات وفي ذلك الوقت تشكل لدينا وعي كوني جديد لا نملك إلا القليل لتفهمه فالعالم يتشكل بطريقة غير تقليدية والألفاظ التي نستعملها اختلفت كثيراً عنها في العقود السابقة والغريب في الأمر أننا نرى وندرك أن دول الأغنياء أصحاب السلطة والصولجان يتكتلون ويتعاونون (ومن ليس معهم فهو ضدهم) والضعفاء يتفرقون وتطحنهم الفرقة والحروب والأمثلة من عالمنا الإسلامي كثيرة.

## السبيل إلى الانطلاق

والأمر الذي لا يختلف عليه اثنان أن الجامعات هي مراكز الانطلاق في الأمم ففيها العلماء ورواد الفكر والبحث وفيها يعد قادة المستقبل وإليها يتطلع المجتمع للإسهام الفاعل في حل مشكلاته وتحقيق أهدافه وبلوغ طموحاته.

وبنظرة فاحصة إلى حال جامعاتنا ندرك أننا قد بلغنا من التردي ما يدعونا إلى توجيه تطورنا بأيدينا وأن ننشئ عمليات جديدة واعية تستطيع أن تواجه وتواكب سرعة التغيير المفروضة علينا.

علينا أن نواجه مشكلة تخلف الأمة العربية مواجهة شاملة تنبثق من دراسة الجوانب المختلفة وأهمها الجوانب التربوية قبل الاجتماعية والإعلامية والاقتصادية والسياسية والتشريعية والحضارية والعلمية والتقنية.

علنيا أن نبدأ وأن نعيد تدريب وتعليم أنفسنا علينا أن ننظر إلى المستقبل برؤية مفتوحة فالتحدي القائم يتطلب نوعاً مختلفاً من التعليم والتدريب والحاجة ملحة إلى تطوير التعليم بنظرة علمية واقعية تقوم على معالجة مشكلاته الراهنة بأساليب غير تقليدية وبرؤية جديدة تكفل إقامة نظام تعليمي حديث ينظر إلى المستقبل بديلاً عن النظام الحالي الذي ينتظر أخطار المستقبل ويلهث وراءها في محاولة للتكيف معها وعلينا أن نبدأ بدراسة واقعنا التربوي، وفهم هويتنا والاعتزاز بلغتنا وأن ندرك بما لا يدع مجالاً للشك أن تطور لسان عربي علمي ليس شرطاً من شروط الوحدة الثقافية والتقدم العلمي وحسب ولكنه شرط لازم من شروط القوة والمنعة والسيادة ولم تتحقق هذه السيادة إلا بالسيادة اللغوية.

## اللغة العربية وهويتنا القومية :

جاء في شرح ديباجة القاموس ج ١/١.٢ لنصر الدين الهوريني تعريف للغة العربية إذ يقول: هي (عبارة عما حفظ من كلام العرب ونقل عنهم من الألفاظ الدالة على المعاني) وهذا التعريف لا يختلف عن تعريف ابن جني في كتابه (الخصائص) ٣٣/١ إذ يقول: «اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» وكلا التعريفين لا يتناقضان مع ما يقوله علماء الدراسات اللغوية في عصرنا الحديث من أن هذا التعريف تعريف لوظيفة اللغة وهي نوع من أنواع السلوك الإنساني وعادة من عاداته يكتسبها بالتقليد والمران من مجتمعه وهي نظام من نظم المجتمع وظاهرة من ظواهره. وهي كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس في (اللغة بين القومية والعالمية): «هي نظام عرفي لرموز صوتية يستغلها الناس للاتصال ببعضهم بعض». واللغة كما يقرر علماء اللغويات الحديثة لا تقتصر وظيفتها على التفاهم بين أفراد مجتمعها وإنما تتجاوز ذلك لأنها الأداة التي يتعلم بها ويفكر بها الإنسان فهي تقود عقله وتوجهه وبها يستدل على السلوك القويم

مع الآخرين وبها يرى الإنسان عالمه وهي فضلاً عن ذلك حافظة التراث الثقافي للمجتمعات وهي منظمة العلاقات الاجتماعية ووسيلة التعاون بين أفراد المجتمع وأهم أدواتها الحفاظ على كيانه ويتبع ذلك أنها العامل الأول لانتشار الثقافة وأهم مقوماتها الحضارة الإنسانية وهي وثيقة الأواصر بهوية الأمة وشخصيتها ومواكبة تطور تراثها الثقافي في العلوم والآداب والفنون والفلسفة وحفظ هذا التراث ونقله من جيل إلى جيل.

هكذا تدخل اللغة العربية في التعريف العام للغات لكن للعربية تعريف خاص يحدد مصدرها والدور الذي لعبته كحاملة لرسالة سماوية خالدة ومبلغة للوحي الإلهي ومعجزته الخالدة وإعجازه المعجز وسفيرة الدين الحنيف إلى كل العالم ولسان شعائره وجامعة الأمة الإسلامية كما أنها مبدعة الحاضرة العربية الإسلامية ومستوعبة الحضارات المختلفة من فارسية وهندية ويونانية وغيرها وصهرها في الحضارة العربية الإسلامية كما أنها عوضت كثيراً من اللغات السامية والتي كانت سائدة آنذاك مثل الآرامية والآشورية ولغات البربر.

أصبحت اللغة العربية الفكر والوجدان والذاكرة الجماعية للأمة العربية والإسلامية وكل ذلك بفضل الإسلام.

وكما تماهت واعتزت بعزة الإسلام هانت بهوانه في نفوس أهلها وعرفت الحضارة العربية الإسلامية ركودها الفكري وخمودها الإبداعي «فانكفأ العطاء إلى انزواء وأعقب التفتح انغلاق كثيف الحجب واليد العليا ارتدت إلى مقابلتها السفلى»[1]. ولولا القرآن الكريم ووعد العلي القدير بحفظ هذا الذكر لانطفأ قبسها تماماً.

ويدور الزمن دورته ويتم سقوط الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع عشر حسب ابن خلدون ويتقلص ظل اللغة العربية ويكاد ينطفئ قبسها نهائياً

لولا وعد العلي القدير وقد تواصل هذا السقوط إلى أواسط القرن التاسع عشر وتحت وقع أقدام الغزاة أفاق العرب من سباتهم فجدت في النصف الثاني للقرن التاسع عشر يقظة ترجم عنها الإحياء الأدبي واللغوي والفكري ومرة أخرى واجهت اللغة العربية الحداثة الغربية ولغاتها ولم تستطع في هذه المرة أن تحسم الأمر لأنها لم تكن في موقع السيادة كما كانت من قبل فالغرب قد احتل الوطن العربي واتجه مباشرة إلى مصادرة هويته القومية وإشعال نار الفتنة بين ذويه وانقسمت النخبة إلى قسمين: قسم يدعو إلى التعريب وقسم يدعو إلى التغريب ولم ينته هذا الانقسام في ظل الاستقلال بل إنه استمر ولا يزال يثير جدلاً عنيفاً.

ولقد أدرك العالم كله أن السعي إلى التقدم باعتماد اللغات الأجنبية بدل اللغة القومية لا يعدو أن يكون عدواً وراء السراب وترسيخاً لقيمة الاستهلاك والاستلاب الفكري وتكريساً للتبعية الفكرية والسياسية والثقافية وبكلمات معاصرة ما هذا إلا استسلام للعولمة بكل سلبياتها فمتى تتوفر للعرب العصبية القومية التي توفرت لكثير من لغات العالم وأصبحت أممها أكثر ازدهاراً ونالت استقلالها اللغوي والثقافي؟ أمام هذا الوضع لا أجد حرجاً في أن نقف على تجارب الدول الأخرى التي اجتازت مشكلة اللغة فكيف نعالج مشكلة الازدواج اللغوي والصراع بين العامية والفصحى.

## خصائص تميزت بها اللغة العربية:

تميزت اللغة العربية على غالبية لغات العالم بالأصالة فقد ولدت وترعرعت داخل شبه الجزيرة العربية في بيئة صافية إذ كان اتصال العرب بغيرهم قبل الإسلام محدوداً للغاية، ومعلوم أن العرب قبل الإسلام كانوا يعيشون في عزلة وكان التقاؤهم بالأمم الأخرى ضعيفاً محدوداً ضيق الأثر وما عرفوه من اتصال

محدود كان عن طريق التجارة مع أهل الشام والعراق والفرس ومصر وعن طريق ترددهم على المدن المتاخمة للفرس والروم مثل الحيرة عاصمة المناذرة بالعراق وعن طريق الأقليات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في شبه الجزيرة العربية.

كان اليهود قبل الإسلام وإلى ما بعد الهجرة النبوية في الشمال في تيماء وفوك وخيبر ووادي القرى وفي يثرب حيث كانت أهم مواطنهم إذ كان فيها ثلاث قبائل يهودية مشهورة هي بنو النضير وبنو قينقاع وبنو قريظة.

وكانت نجران بالجنوب أهم موطن للنصرانية وكان بعض العرب نصرانياً على دين المسيح وكانت هناك عناصر أخرى قليلة من الفرس والروم والأحباش لكن اتصال العرب بغيرهم كان محدوداً للغاية خاصة عرب البادية وإذا كان اتصال ما فلم يكن اتصال امتزاج حضاري يأخذ منه العرب عن تلك الأمم شيئاً يطغى على فكرهم وحضارتهم وبداوتهم ولعل السبب الأول هو الحوائل الطبيعية والصحارى الممتدة والحوائل الاجتماعية بين الفرس والروم والعرب ثم انتشار الأمية بين العرب حتى ما ندر أن نجد القارئ الكاتب الذي ينقل الحضارات الأخرى أو يتأثر بها.

والعرب الذي عاشوا في أطراف شبه الجزيرة العربية وفي المدن وحتى الذين كانوا يقومون برحلات تجارية لم يحفلوا بالجانب اللغوي كثيراً، وفيما يبدو أن تأثير اليهود والمسيحية في العرب لم يكن ذا شأن أو أثر يذكر وحتى المهودين من العرب أمثال السموأل الشاعر الأزدي اليهودي العربي الأصل والمعاصر لامرئ القيس في منتصف القرن السادس الميلادي وكعب بن الأشرف من طيئ وابن أم يهودية من بني النضير فكل هؤلاء الشعراء اليهود نظموا الشعر بالعربية وقد ذكر ابن سلام الجمحي في طبقاته ثمانية منهم جعل أولهم السموأل الأزدي وقدم

لهم بقوله: «وفي يهود المدينة وفي أكنافها شعر جيد منهم» وكذلك نصارى نجران فقد كانوا عرباً دانوا بالمسيحية مثل قس بن ساعدة الأيادي خطيب العرب وشاعرها المشهور وكثير من شعراء العربية من أصل غير عربي مثل سحيم عبد بني الحسحاس (مولى جندل بن معبد) ومثله زياد بن سليمة العبدي (مولى عبد القيس) والمعروف بزياد الأعجم. هذا وقد ربط اللغويون العرب سلامة السليقة اللغوية العربية بعزلة العرب وعدم الاختلاط بغيرهم ونجد في آراء بعض المستشرقين ما يشبه هذا الرأي فالمستشرقون يعتقدون أن العرب احتفظوا بلغتهم السامية الأصلية لعزلتهم وبعدهم عن الأمم الأخرى فالقبائل القاطنة في أصقاع الجزيرة احتفظت بلغتها نقية إذ كانت هذه القبائل في مأمن من التأثير بحضارتها.

من المسلم به في علم اللغويات أن اقتراض اللغات بعضها من بعض أمر واقع وحتمي ولكن التقاء العرب بغيرهم كان في حدود ضيقة ومحدودة كما ذكرنا كانت كل ما أخذوه من الشعوب التي اختلطوا بها ألفاظاً تتصل ببعض ما كانوا يستجلبونه من الأشياء التي لم تكن عندهم وما كانوا يشاهدونه في بلاد غيرهم مما لا عهد لهم به وكلها تدل على أشياء مادية لا على أمور معنوية مثل: قسطاس وسروال وصنم ومسك ومرجان ودرهم ودينار وقنطار وصراط وقرطاس وإستبرق وكوب وقد أخضعوا هذه الكلمات المستعارة لقوانين كلامهم في الإعراب وفي تركيب بنيتها ومخارج حروفها وأصواتها حتى أصبحت عربية لا صلة لها بأصلها حتى ليخيل إلى سامعها أنها عربية الأصل.

«ليس من شأني أو شأن أي أحد يتعرض لموضوع اللغة العربية أن يدعي القدرة على الإحاطة بكل شؤونها فاللغة أبرز ظواهر الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية والنفسية واللغة العربية هي الهوية العربية أو الوجود العربي - والقضايا التي وقفت عندها ليست على سبيل الحصر ولم أقصد به إلى الاستيفاء

ولكن لمقارنة ما ذكرته عن العربية بما سأذكره عن أصل وتطور اللغة الإنجليزية وما كلاهما إلا منقار طائر أصاب من التيار قدر التبلل»[٢].

## الثقافة:

لم أجد في قواميسنا العربي تعريفاً واحداً لمفهوم الثقافة يشفي ويريح وفي كثير من المعاجم يفيد لفظ ثقف إقامة درء الشيء ويقال ثقف القناة أي أقام عوجها كما تفيد العمل بالسيف وحذق الشيء والفطنة :

**فإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على العداء قبلك أن تلينا**
**إذا عض الثقاف بها اشمئزت ... وولته عشوزنة زبونا**
**عشوزنة إذ انقلبت أرنت ... تشج قفا المثقف والجبينا**

وقد عرفتها المعاجم الغربية الحديث بأنها (العلوم والمعارف والفنون والآداب التي يطلب الحذق فيها) فالتعريفات القديمة تشير إلى صفات أخلاقية والحديثة تفيد باكتساب المعارف العامة وتتفق التعريفات الحديثة على كونها معبرة عن درجة الحضارة لشعب من الشعوب إذ تشمل فنونه وقوانينه وحرفه ونظرته إلى تأسيس المجتمع وموقفه من الأخلاق والفضائل والذوق السليم وسعة الأفق والسماحة[١]. ووعاء كل هذا هو اللغة وبها أحس المجتمع بالانتماء واشتراكهم في نفس المفاهيم والقيم. هذا هو المعنى الاجتماعي لكلمة ثقافة إذ تشير إلى ما للمجتمع من تقاليد وعادات وأدوات عمل وأطر تفكير موروثة عن سلوك السلف كالخرافات والأساطير والأغاني والنظر إلى الحياة في عمومها وهذا المعنى الذي يغار على التراث ويدعو إلى التقليد والمحافظة على الموروث ويرى في الخروج عليه عاراً أو خروجاً على المجتمع.

والمعنى الآخر للثقافة: معنى فردي يختص بالفرد وبمقوماته الشخصية وبما كسبه من معارف وعلوم مما يمكنه من التصرف السليم فيما يعرض عليه من مواقف وفي المساهمة في النشاط الفكري والإبداعي وعندما نتحدث عن طائفة المثقفين في بلد ما فإننا نتوقع من هذه الطائفة أن تكون في مكان القيادة من الرأي العام في البلد من إبداع ونقد وإقرار ما ينفع مجتمعه ووسيلة هذه الطائفة هي الكلمة المسموعة أو المكتوبة إما عن طريق المسرح أو التلفزيون أو الصحافة أو المناظرة ووسائل الإعلام المختلفة وتكوين المثقف لا يكون إلا عن طريق اللغة سواء كان عامل التأهيل وما يناله من تراث أمته وقيمها أو ما يناله من أسرته مباشرة في مراحله الأولى من طفولته فالأول دور اجتماعي والثاني دور يخص التنشئة.

## العلاقة بين اللغة ومستوى الأمة الحضاري:

بلغت اللغة العربية أوج رفعتها في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية وذلك بفضل التراكمات المعرفية والحضارية التي عرفتها الحياة الفكرية وأن أهم ما اتسمت به الحداثة في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية أنها حداثة قاعدية توطنت في اللغة العربية فداخلت النسيج الاجتماعي وارتبطت بإرادة التغيير وإعلاء دور العقل وحرية الإرادة والقدرة على الإبداع والانفتاح على الحضارات الأخرى دون أن يفارق العقل العربي مواقعه الروحية والأخلاقية وبذا استطاعت اللغة العربية أن تستوعب الحضارات الأخرى.

اعتمد ثاني الخلفاء العباسيين أبو جعفر المنصور رؤية مستقبلية فاتجه إلى نقل علوم اليونان والهند وأمر بتعريب المصادر الأساسية في الهندسة والفلك والطب والمنطق لتكون مهاداً حقيقياً للنهضة العلمية العربية الإسلامية وتواصل هذا المد التنويري إلى عهد هارون الرشيد فشجع على نقل العلوم من اليونانية

وحسب رواية القلقشندي أمر الرشيد بالكتابة على الورق بدلاً من الجلود فكان هذا تحولاً حاسماً في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

وفي عهد المأمون توطن العلم في اللغة العربية وازدهر التاريخ فانتقلت الحياة العقلية انتقالاً جديداً واستمرت هذه الحداثة قائمة إلى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري ولم يكن لغير اللغة العربية شأن بهذه الحداثة ولا إسهام. في عصر المأمون كما يقول البيروني (٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م) بدأ الفكر العربي يتألق إبداعاً وابتكاراً وحسن تأليف ويطرح إشكاليات معرفية ومنهجية لم تكن مألوفة من قبل وذلك للتطور الذي عرفته الحياة الفكرية في القرن الثاني بإفادتها من الثقافات المترجمة. كانت الحداثة عند المأمون مربوطة بالحرية والمسئولية وسيادة العقل واعتبار الموروث مملوكاً للإنسان لا مالكاً له. وقد تعامل مع العلوم الأجنبية من موقع السيادة وشجع على نقلها إلى العربية لإزالة الحاجز بين أفراد المجتمع والعلم وبذلك تعرب العلم نفسه وأصبح جزءًا من النسيج الاجتماعي متاحاً لكل مقتدر من أبناء الأمة وهذا عكس ما نحن عليه اليوم إذ تم تهجير العرب إلى العلوم الأجنبية في لغاتها الأصلية فالعلم اليوم ليس قاعدة من قواعد المجتمع وإنما قيمة مضافة يتمتع بها عدد قليل من النخب العربية دون أن تكون بمنجاة من التمزق والعقم وباختيار المأمون لتوطين العلم وتعريبه تحررت مواهب الأمة فصاغت هذه الحضارة في لغتها صياغة مستحدثة في ابتكار وتناغم تامين وهكذا صاغ العرب من موقع السيادة والمناعة حضارات العالم القديم في لغته صياغة عالمية متميزة لصالح الإنسانية جمعاء.

وما أن وافى القرن الخامس الهجري حتى أطلق أبو الريحان البيروني صيحته التي تنذر ببدء زمن السقوط في كتابه "تحديد نهايات الأماكن" والذي ألّفه سنة ٤١٦ هـ - ١٠٢٥ م تحدث عن جهل أهل زمانه وبغضهم للعلم وأهله واتهامهم العلماء بالإلحاد، وما هذا ببعيد عن حديث ابن منظور الإفريقي مؤلف "لسان

العرب" وحديثه خير شاهد على معاناة اللغة العربية آنذاك. يقول ابن منظور في مقدمة معجمه: «لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنة النبوية وذلك لما رأيته غلب في هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعد لحناً مردوداً وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية وتفاصحوا في غير العربية فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون ووضعته كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون وسميته: لسان العرب».

وأورد أبو الريحان البيروني في كتابه "الصيدنة"[٤]: «أن اللغة الفارسية لا تصلح أداة للبحث العلمي وأنها لا تعدو أن تكون لغة أسمار ليلية وأخبار كسروية وإلى اللسان العربي نقلت العلوم في أقطار العالم فازدانت وحَلَتْ في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين الأوردة بإمكان كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مع إيلافها وأشكالها وأقيس هذا بنفسي وهي مطبوعة على لغة الخوارزمية لخلد بها علم لاستغرب استغراب البعير في الميزاب والزرافة في الأكواب ثم منتقلة إلى العربية والفارسية فأنا في كل واحدة ولها متكلف والهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية وسيعرف مصداق قولي من تأمل في كتاب علم قد نقل إلى الفارسية قد ذهب رونقه وكسف باله واسودّ لونه وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية».

ومرة أخرى تواجه العربية الحداثة بعد زوال الاستعمار وبعد أن أفاق العرب من سباتهم العميق لكن لم تستطع العربية هذه المرة أن تحسم الأمر لماذا؟ لأنها لم تكن في موقع السيادة فهوية الأمة قد طمست وصادرها المستعمر وأشعل نار الفتنة بين ذويه وفرض لغته وانقسمت النخبة إلى ثلاث طوائف: طائفة التعريب

وطائفة التغريب والثالثة حائرة لا حول لها ولا قوة ولم ينته هذا الانقسام ولا يزال يثير الجدل والخصام.

## التعريب:

إن التعريب ضرورة يقتضيها وجودنا وتطلعنا إلى إنجاز مشروع حضاري لكن التعريب لن يفض إلى هذا المشروع إلا في نطاق وحدة عربية مقامة على حرية الرأي وإعلاء دور العقل وبهذا وحده نستطيع أن نوفر الإمكانات البشرية والمادية التي تسمح بكسر الطوق الذي يضربه العدو وهي التي تضمن الأمن القومي لدرء التحديات ويستدعي التعريب بالضرورة الانفتاح على اللغات الأجنبية والتمكن منها ولقد علمنا الواقع أن الحداثة التي أنجزتها الصين واليابان وكوريا تدل على أن اللغة القومية هي المستودع الحقيقي للإبداع الحضاري وأن احتكار اللغات الغربية للحداثة هو محض ادعاء عنصري استعلائي يعدنا طرفاً استهلاكياً ومتى ما عدنا وأيقنا أن تقدمنا رهين بالاعتماد على لغتنا وأن الاعتماد على لغات أخرى لا يعدو أن يكون جرياً وراء السراب وترسيخاً لقيمة الاستهلاك والاستلاب الفكري وتكريساً للتبعية الثقافية والسياسية والاقتصادية واحتضاناً لسلبيات العولمة ـ متى ما أقررنا هذه نلنا استقلالنا اللغوي وأفدنا العالم كما أفدناه من قبل وقلبنا العولمة لصالحنا ولصالح البشرية.

عرفت الحضارات الأخرى وما زالت تمارس الترجمة وبنشاط دؤوب واللغة الإنجليزية لم تتوسع وتقوى وتنتشر في القرون الخمسة الأخيرة إلا بفضل الترجمة للإغريقية واللاتينية والتي كانت مادة أساسية في نظام التعليم البريطاني وقد أدى ذلك إلى دخول آلاف الكلمات ومشتقاتها إلى اللغة الإنجليزية، ولولا الترجمة لما تحقق ذلك الضبط الفكري وذلك للدقة التعبيرية ولولا الترجمة لكان تقدم العلم متعثراً بل ومستحيلاً وقد يسرت الترجمة للعلم أداته

المصطلحية التي لا بد منها لكل تطور فكري والترجمة عامل فعال في تشكيل العلمية الحضارية وما تقتضيه من تواصل مستمر مع الآخرين، ذكر أن شيشرون وهو أكثر الناس تزمتاً وحرصاً على سلامة لغته اللاتينية قد سمح لنفسه باستعمال المفردات اليونانية التي كان في حاجة إليها وكان في البداية يستخدم المصطلح اليوناني على أنه أعجمي يتناوله بامتعاض ثم انقلب عنده حقاً وتملكاً واعتبر المصطلح حقاً من حقوقه. ونعلم أن جماعة النصارى بالأندلس أقبلوا على تعلم العربية واستخدامها في كتاباتهم مؤثرين إياها على اللاتينية، فهل هناك أهمية لكون اللفظ ولد في بلد ما أو أبدعه شخص ما؟ أو ليست الألفاظ أصوات اعتباطية فلماذا نصر على استبدال كلمة أجنبية بكلمة عربية ما دامت نفس الأصوات موجودة في لغتنا أو ليست اللغة كائناً اجتماعياً حياً له تطوره اجتماعياً تتطور على غرار المجتمع وتتحول وتتجدد وتتخلى عن العناصر البالية؟ لقد صار لزاماً على اللغة أن تخوض غمار عالم جديد وأن تختار لها طريقاً كي تعبر عن المفاهيم الجديدة واللغة مرآة المجتمع وواقع الأمة وحالتها الحضارية ومستواها العلمي وما اللغة إلا أداة اتصال وإبلاغ يكون لها من الفاعلية بقدر ما يكون لمستعمليها من كفاية وبراعة وفي الواقع إن اللغة براء مما قد يلحق بها من تهمة الفقر والعقم وإنما يتصل أصل الداء بالأشخاص وبعقليتهم ومستواهم الذهني نعود ونسأل أنفسنا هل نحن فعلاً قادرون على نقل العلوم وترجمتها؟

## قدرتنا على التعريب ونقل العلوم:

مرت اللغة العربية بوضع يشابه بعض الشيء وضعها اليوم وذلك عند مطلع الفتح الإسلامي وخلال القرن الأول الهجري حيث اجتمعت عدة عوامل جعلت نقل العلوم إلى العربية أمراً حتمياً. من أهم هذه العوامل انتشار العربية لغة القرآن

فرغب المسلمون الجدد من سكان مصر والشام والعراق وفارس في إدخال علومهم التقليدية إلى لغة دينهم وتقرب الموالي من الحكام العرب وأقبلوا يترجمون لهم علوم اليونان وفارس والهند وفوق هذا كله ونتيجة لرؤية الحكام العرب وتشجيعاً للباحثين والمترجمين والبذل لهم شاع الجو الثقافي بين الناس فكانت الحداثة حداثة قاعدية وأصبحت العربية لغة علم وحضارة واحتوت جميع العلوم وكانت لغة العالم المتحضر في القرون الوسطى. وأرى أن المناخ لحركة علمية واسعة يبدأ بالترجمة قد تهيأ لكن أين المأمون وأين بيت الحكمة وأين المنصور الذي كان يدفع ثمن المخطوطة ذهباً.

ولا شك أن للترجمة أهمية قصوى إذ إنها تمثل حجر الزاوية في عملياتنا كلها إذ بها يمكن توفير المراجع القيمة في مختلف التخصصات وإثراء المكتبة العربية بعناوين بأمهات الكتب والتي نقلت إلى لغات عدة وأول خطوة لهذه الحركة يجب أن تكون انتقاء ما يترجم والاتفاق على أولويات ما نترجمه والاتفاق على أن اللغة كائن حي متطور دائماً وليست مجموعة مفردات أزلية المولد أبدية البناء دائمة الثبات قد تضعف وتزيد بضعف الفكر والإبداع والوعي الحضاري وأهم من هذا علينا أن نقر أن اللغة العربية ليست ملكاً لأحد أو لمجموعة أو منظمة بل ملك لكل متحدثيها يتصرفون فيها بالإضافة والتوليد والاستعارة وأوصي أن لا نتخوف من اللفظ الأعجمي إذ إنه أساساً ملكاً لأهله ولكن من حقنا أن نصقله ونصيغه في قوالب وأوزان عربية ونخضعه لقوانين وقواعد اشتقاق اللغة العربية، وألفت النظر هنا إلى أن هناك عدة توصيات قيمة تقدمت بها مؤتمرات عديدة ولجان متخصصة وألخص هذه التوصيات في:

١) التنسيق بين مشروعات الترجمة القطرية في العالم العربي.

٢) إعداد قوائم بالكتب التي تحتاج المكتبة العربية إلى ترجمتها والتي تسد ثغرات حقيقية فيها وذلك بالتعاون مع الدول العربية والعلماء المتخصصين فيها.

٣) إنشاء أقسام خاصة بالترجمة في الوزارات المعنية.

٤) إعداد فهرس كامل شامل لما تم ترجمته إلى اللغة العربية.

٥) وحرصاً على مواكبة المواطن العربي لمسيرة الثقافة العالمية يلزم كل باحث عربي ترجمة ما يكتبه بلغة أجنبية إلى اللغة العربية.

٦) ترجمة الدوريات والمجلات الأجنبية.

٧) ويا حبذا - لو اتفقنا - على أن تتولى دولة عربية واحدة رئاسة لجنة التعريب والترجمة والتزام الجميع بأخذ ما يأتي من هذه اللجنة.

ولتيسير عمل هذه اللجنة الموحدة وتوحيد مناهجها أقترح الالتزام بالآتي:

١) إدخال اللفظ الأعجمي ضمن المعجم العربي.

٢) يوضع لفظ واحد للمفهوم الواحد ونتجنب الترادف.

٣) يراعى تصديق المصطلح البسيط على المركب.

٤) يفضل اللفظ العربي الأصيل على المعرب وعلى الأجنبي إذا وجد.

وأعود لأؤكد أننا لن ننجز هذا العمل إلا إذا اتفقنا على مبدأ التوحيد وإيجاد جهة مركزية واحدة يمكن أن تمثل الأقطار العربية كافة وتتحمل مسئولية الانتقاء ولن نقضي على تشتت المجهودات ونتوجه إلى العمل الثقافي المشترك إلا إذا نبذنا ظاهرة التعددية والعصبية القطرية والانفعال في الحقل العلمي فكم من جهد ضاع وكم من وقت انفلت بسبب تلك الآفات، نحن نهدف إلى كتاب مترجم باسم الوطن العربي واللغة العربية وليس باسم دولة معينة يكون مرجعاً للعلماء والباحثين والطلاب العرب ونكون قد وثقنا عرى الاتصال الثقافي بين أقطار الوطن العربي مشرقه ومغربه ونكون قد نجحنا في توحيد الأمة ثقافياً بعد أن فشلنا سياسياً كما نوصي أيضاً بإتقان اللغتين الفرنسية والإنجليزية في الوطن العربي مشرقه ومغربه وعندما ننجز هذا العمل - الترجمة والتعريب - يمكننا أن نتحدث عن تعريب التعليم العالي وخلق مواطن صالح يتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه ومع البيئة التي تحيط

به وخلق عالم عربي راسخ يكشف اللثام عن مفاهيم جديدة يضطر الغرب إلى أخذها كما فعل في الماضي.

وعجلة الزمن تدور متسارعة وتخلف الواقف عن القافلة السائرة بسرعة يتفاقم وبحمد الله عدد العلماء العرب يتزايد يوماً بعد يوم مع أن كثيراً منهم آثروا اللجوء إلى مواطن أخرى واستقروا في بلاد الغربة التي منحتهم العيش الكريم والحرية الفكرية التي فقدوها في وطنهم الأصلي، فهل لنا من سبيل إلى منح العلماء العرب هذا العيش الكريم والحرية الفكرية وإن كان وضعنا الحالي مما يؤسف له لا محال فإنه محكوم علنيا أن نتحمله وننظر إلى أجيالنا القادمة عسى أن تأت بما لم تأت به الأوائل بل علينا أن نستمر في صد الغزو الفكري والتعلق بلغات الأعاجم. وسيزيد تمسكنا بلغتنا وثقتنا بكفايتها لمجارة العلوم الحديثة ومتطلباتها قول العزيز الجليل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون) صدق الله العظيم. وتشرئب أعناقنا لنرى القرار السياسي الوحدوي الذي يحسم الأمر ويملكنا السيادة الثقافية وسيادة اللغة العربية والسيادة السياسية في وطننا العربي.

## اعتراف للتاريخ:

جيلنا هذا والأجيال التي سبقتنا فشلت وللأسف في مواجهة مشكلة تخلف الأمة العربية مواجهة شاملة تنبثق من دراسة الجوانب المختلفة وأهمها الجوانب التربوية قبل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإعلامية والتشريعية والعلمية والتقنية.

نقر بأن التعليم في بلادنا يعاني من مشكلات كثيرة ذات جوانب متعددة ومتداخلة لها أسبابها ومسبباتها وهذه الأزمة ما هي إلا انعكاس طبيعي ونتاج حتمي لإفرازات الظروف التي مرت بها المنطقة على مدار تاريخها المعاصر، ولنا

ما يمكن أن يعد مؤهلاً قوياً للتنمية والتقدم إذا ما أحسنا استخدامها فالمصادر الطبيعية والثروة البشرية والمادية والموقع والمساحة وتجربة عصورنا الزاهية كلها يمكن أن تكون في صالحنا.

علينا أن نبدأ وأن نعيد تدريب وتعليم أنفسنا وعلينا أن ننظر للمستقبل برؤية مفتوحة فالتحدي القائم يتطلب نوعاً مختلفاً من التعليم والتدريب والحاجة ملحة إلى تطوير التعليم بنظرة علمية واقعية تقوم على معالجة مشكلاته الراهنة بأساليب غير تقليدية وبرؤية جديدة تكفل إقامة نظام تعليمي حديث ينظر إلى المستقبل بديلاً عن النظام الحالي الذي ينتظر أخطار المستقبل ويلهث وراءها للتكيف معها.

ودون استفاضة أشير إلى الرجوع لما كتبه الدكتور رأفت رضوان[٥] وما جاء في تقرير اللجنة الدولية لليونسكو حول التربية في العالم الثالث للوقوف على مشكلات التعليم والتربية الراهنة فالتحديات التربوية والثقافية لا حصر لها ولا يمكننا أن نغمض أعيننا ونقرر الانسحاب وعدم المشاركة في السباق ولا يمكننا أن نغلق حدودنا وأبوابنا ونوافذ بيوتنا ونصم آذاننا على أساس أن ما يحدث بعيد عنا فدخولنا السباق أصبح قدراً لا مفر من المشاركة فيه ليس لدينا اختيار وهم ينفذون إلينا ويأتوننا عبر الأثير وعبر الواقع الافتراضي Virtual Reality نراهم ولا نشرع بهم فقط نرى نتائج أعمالهم لا المادية والمستوردة فحسب بل في سلوكنا وتصرفاتنا وحديثنا (ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِين) صدق الله العظيم (سورة الأعراف أية ١٧).

هذا التنافس القدري المحتوم والذي لم نشارك في قواعده وشروطه الجديدة أصبح سباقاً وتنافساً قومياً وتنافس لا يعتمد على الثروة المادية والتي حبانا الله

بالكثير منها بل على الثروة الفكرية التي قسمها الله لجميع خلقه. بني هذا السباق بين مضمارين هما تكنولوجيا الحاسبات وتكنولوجيا الاتصالات في منظومة أفرزت فضاءً جديداً اسمه الفضاء الإلكتروني Cyber Space والذي بدوره أنتج ثورة الإنترنت ذات الوظائف المتعددة فهي وسيلة ربط لكافة مصادر المعلومات وتبادلها الفوري كما أنها وسيلة اتصال متكاملة لإجراء الحوار مع أي فرد وفي أي وقت وفي أي مكان كما أنها مكتبة مفتوحة طيلة اليوم تحوي كل أنواع المعرفة والوثائق والمحاضرات والبرامج التدريبية وهي فوق هذا وذاك وسيلة للتنمية البشرية من خلال التعليم المستمر المفتوح ولكن ليس كل ما تقدمه هذه الثورة إيجابي.

## الخطر:

منتجات ثورة المعرفة لها مخاطرها فهي تحمل ضمن مكوناتها فكراً وقيماً مختلفة وهكذا أصبح على مستهلكي هذه السلع التعرض إلى ثقافات وقيم وأفكار قد تختلف أو تخالف ثقافتنا وقيمنا وأفكارنا، هي تهديد لكنها فرصة إن أحسنا توظيفها كيف؟ وهل نحن فعلاً قادرون على هذا التوظيف الأمثل؟

## التوظيف الأمثل:

ثورة المعرفة ليست سلعة كسائر السلع تستورد وتدفع لها جمارك لا بد من إنتاجها بلغتنا للتلاؤم مع عقيدتنا وقيمنا وأولوياتنا وتؤثر في غيرنا وبذلك نكون قد قلبنا السحر على الساحر، ولكي نفعل كل هذا علينا :

١) ابتكار نموذج خاص بثقافتنا وقيمنا.

٢) نحتاج إلى منظومة تعليمية حديثة تضمن لنا الحفاظ على سمات الشخصية العربية المحبة للوطن وللإنسانية جمعاء.

٣) استثمار إيجابيات العولمة.

يرى بعض المهتمين أن العولمة أمر حتمي يهدد قيمنا ووجداننا بل هويتنا ومن ثم علينا أن نوصد كل النوافذ وأن نقاومها بكل ما أوتينا من قوة ويرى هؤلاء أن العولمة في حقيقتها هي غلبة القطب الواحد بقيمه واقتصاده وفلسفته وخيله وجنده وترسانات سلاحه المتطورة وعقوباته الجائرة على من ليس معه.

ويرى فريق آخر أنها بشير خير وتقدم من ثم علينا أن نفتح كل نوافذنا بل صدورنا ونأخذ بكل معطياتها التقنية ومن أساليب الاتصال والسياسة وبخاصة التعددية والتطبيع وكل ما يملي علينا ولا شك أنه في مصلحتنا إزاء الوضع المتردي الراهن وهناك فريق وسطي ثالث يرى أن نأخذ منها ما يلائم هويتنا وأن نستفيد من المفيد منها ونتقي شر سلبياتها وهذا ممكن إن أحسنا الاستغلال والاختيار.

ليس الأمر بهذه السهولة فتعريف العولمة نفسه غير واضح والاختلاف حول مفهومها أوضح انظر تعريف صومائيل هنتجتون الأستاذ بجامعة هارفارد: The Clash Civilization & the Making of World Order وماكنيل وليل: Decline of the West في مجلد لـThe New York Review of Books يناير ١٩٩٧ والرأي عندي أن الأمر بيدنا تماماً ومعنا أمثلة كثيرة أخذت من الغرب كل حاجاتها من تقانة وعلوم واحتفظت بهويتها الثقافية مثلما حدث في اليابان والصين وكوريا الجنوبية فكل هذه الدول أخذت من الغرب منهجه في التحديث والتقدم العلمي والعولمة ليست ثقافية فقط بل تتضمن جوانب تِقَنيّة أيضاً ولم لا نأخذ بكل هذه الجوانب ما دامت تساعدنا على التنمية الشاملة وتحقيق الشورى والعدالة والأمن إذا أردنا فعلاً أن نتقي سلبياتها ما علينا إلا:

١) استحداث البث المباشر والأقمار الصناعية والشبكات الإلكترونية لبث ثقافتنا وضمان وصولها إلى أهل الغرب بلغتهم، والعمل على نشر لغتنا وتوجيههم فكرياً كما يوجهوننا فكرياً وان نبهرهم كما يبهرونا.

٢) أن نعتني عناية فائقة بمناهجنا التربوية لتوعية أجيالنا القادمة وأن ننشئ مراكز ثقافية ومعاهد تعليم مفتوحة لتقدم إلى الراغبين منا فهم حضارتنا أولاً وحضارتهم ثانياً.

٣) أن نعمل على نبذ النعرات القومية والعرقية والقطرية بين العرب مما يمهد لنا التوحد والحفاظ على إمكاناتنا المهدرة حتى نتمكن من التأثير على الكيانات الكبرى التي بدأت تتشكل حولنا.

٤) أن نعمل على الحفاظ على أبناء العرب المبرزين في العلوم والتقانة في بلدانهم العربية وإغرائهم بكل حاجاتهم المادية وتوفير حرية البحث واستغلال معاهد العلم والبحوث استغلالاً تاماً.

٥) منح حرية الصحافة وحرية التعبير باستقلال الجامعات وقبول الرأي الآخر.

## خاتمة:

وبعد، إذا أردنا أن نلحق بالعالم حولنا أو الموجة الثالثة علينا أولاً أن نقر ونعترف بواقعنا ونردد قول الشاعر:

**نعيب زمـــاننا والعيب فـــينا ومـــا لزماننا عيب ســـوانا**

علينا أن نوقف التأسي على الحاضر والتباكي على الماضي وأن نركز قضيتنا الأساسية نحو المستقبل علينا أن نعمل جميعاً لفك مجتمعاتنا وقدراتنا المعتقلة وأن نفتحها لتطوير نظام يحقق الحرية الفكرية والتعددية وقبول الرأي الآخر وتكوين عقل نقدي في نظامنا التعليمي والإعلامي ولا بد من وضع

منهجية لعبور هذا التخلف شرقية أو غربية إذ إن المنهجية لا جنس لها والحديث عن ثقافتنا لا يعني نبذ كل ما فيه جديد ولا ولن نستطع الابتعاد عما يجري في العالم من حولنا وأختم بتوصية واحدة ظللت أمني النفس بها ألا وهي أن يبدأ أي مؤتمر عربي أو إسلامي بمراجعة ماذا تم وماذا تحقق في المؤتمرات السابقة من توصيات وإلا سيظل الموضوع نفسه مثار البحث والجدال والخصام في جميع المؤتمرات اللاحقة مع اختلاف طفيف في عناوينها وأتمنى صادقاً أن لا نعود بعد أعوام ونرفع الحجاب ونجد أن قول الشاعر العربي المتشائم قد تحقق:

ورفع الحجاب ولم يكن من خلقه  إلا مـــراويد بلـــين ومبـــخر[٦]

## هوامش

١) د. صالح الخريف: اللغة العربية هويتنا القومية، من قضايا اللغة العربية المعاصرة، ١٩٩٠م، ص ١٩.

٢) أحمد بابكر الطاهر: الذخيرة اللغوية، مجلة شبكة جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجيا، المجلد التاسع، العدد الثالث، ٢٠٠٤م.

٣) د. إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية، ص ٩٨.

٤) أبو الريحان البيروني، الصيدنة، ط كراتشي، ١٩٧٢م.

٥) د. رأفت رضوان: المعلوماتية والإنترنت، في إعداد الوطن العربي في القرن الحادي والعشرين في ظل ثورة المعلومات، الإمارات، ١٩٧٠م.

٦) محمد المهدي المجذوب: اللغة الحجاب، ديوان تلك الأشياء.

## مراجع:

١) د. إبراهيم أنيس: اللغة بين القومية والعالمية.

٢) د. إبراهيم إدريس، من أسرار العربية.

٣) ابن خلدون: المقدمة، فصل ٣٨.

٤) ابن منظور: لسان العرب، إعداد: يوسف خياط، بيروت، صفحة ذ من المقدمة.

٥) العقاد: أشتات مجتمعات، دار المعارف، مصر.

٦) محمد رشاد الحمزاوي: النظرية المعجمية العربية وسبلها بالإحاطة بالفكر العربي من قضايا اللغة العربية المعاصر ١٩٩٠، ص ٢٧٧٠.

٧) د. عمر أحمد صديق: اللغة العربية وما لها وما عليها، لطرح المصطلح العلمي، مؤتمر الفراغ القانوني والتجارة الإلكترونية، أبو ظبي ٢/٤/٢٠٠١م.